

الظروف الدولية ومشاريع فرنسا لاحتلال الجزائر
International conditions and projects
"France to occupy Algeria"

أ.د/ محمد دادة

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

dadamohamed31@yahoo.fr

Doi: 10.53283/2157-007-001-003

تاريخ الاستلام: 2024/11/01 تاريخ القبول: 2024/11/10 تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إمالة اللثام عن جوانب مهمة من تاريخنا الوطني، ويتعلق الأمر بقضية الظروف الدولية ومشاريع فرنسا الاستعمارية من أجل احتلال الجزائر. حيث أثير موضوع الجزائر في مؤتمر فيينا سنة 1814، و رغبة الدول الأوروبية في تخطيم القوة البحرية الجزائرية في البحر الأبيض المتوسط لتحرير الأسرى المسيحيين الذين ما يزالون في الجزائر.

كلمات مفتاحية: فرنسا، الجزائر، الاستعمار، الاحتلال، المشاريع، الظروف.

Abstract : This study aims to uncover important aspects of our national history, and it relates to the issue of international circumstances and France's colonial projects to occupy Algeria. The issue of Algeria was raised at the Vienna Conference in 1814, and the desire of European countries to destroy the Algerian naval power in the Mediterranean to liberate the Christian prisoners who were still in Algeria.

Keywords: Algeria, France, colonialism, occupation, projects, circumstances.

1. مقدمة:

لقد أخفقت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية في إيجاد تحالف مشترك أو تضامن فيما بينها ضد الدول المغربية، ولاسيما ضد الجزائر، حتى انتهت الحرب النابولونية، وقام نوع من التضامن عن طريق المؤتمرات الدولية لمعالجة المشكلات العالمية، فأمكن الاتجاه لمعالجة المسألة الجزائرية على نحو جديد، يقوم على فكرة إيجاد جبهة أوروبية واحدة ضد الشمال الإفريقي، وبذلك دخلت المسألة الجزائرية في دور

جديد، يقوم على مبدأ العمل المشترك ضد الجزائر، ولكن أوروبا ظلت تتردد في كيفية تنفيذ هذا الدور. واستطاعت فرنسا في النهاية أن تنفرد بهذه المهمة مستغلة الخلافات الدولية التي سادت أوروبا ابتداء من عام 1815.

أثير موضوع الجزائر في مؤتمر فيينا سنة 1814، ورغبت الدول الأوروبية في تحطيم القوة البحرية الجزائرية في البحر الأبيض المتوسط لتحرير الأسرى المسيحيين الذين ما يزالون في الجزائر. وقد أبدى الأميرال البريطاني سديني سميت (Sidney Smith) اهتماما كبيرا بهذه المشكلة، نظرا لاتصاله بمنطقة البحر المتوسط إبان الحروب النابولونية. ففي أوت 1814 قدم " سديني سميت " مذكرة بخصوص الجزائر إلى حكومات الدول المعنية بضرورة القضاء على ما أسماه " القرصنة"، واشتملت على عدة مبادئ مهمة: منها ضرورة قيام أوروبا بعمل جماعي ضد " القراصنة المغاربة"، واقترح الوسائل الكفيلة بذلك. ولم يكن الهدف من هذا التدخل الأوروبي، احتلال الجزائر، وإنما الاكتفاء بتحطيم حكومة الدايات القائمة، وإقامة حكومة أخرى في الجزائر ترعى مصالح التجارة وتنسجم مع المبادئ المتبعة بين " الدول المتحضرة". ولتحقيق هذه الخطة اقترح الأميرال البريطاني تأليف قوة بحرية مشتركة، وأبدى رغبته في أن يكون قائدها، ولكن المشروع لم يلق التأييد من إنجلترا وفرنسا¹.

ويبدو واضحا بالنسبة لفرنسا أنها خرجت من حروب نابليون مستضعفة، وكانت تعلم جيدا أنها لم تستطع في هذه الظروف أن تقوم بدور رئيس في أي عمل جماعي يتخذ ضد الجزائر، ولا سيما وأنها تخوفت من إنجلترا التي كانت من المنتظر أن تتولى قيادة العمليات البحرية في البحر المتوسط، وتحقق مزايا مادية غير أن الكونت جول دي بولينياك (Jules De Poliniac) وهو الذي سيصبح وزيرا لشارل

¹ ليست هذه أول مرة تظهر فيها فكرة إنشاء رابطة بحرية مكونة من الدول الأوروبية لمحاربة "قراصنة" دول المغرب، لقد ظهرت هذه الفكرة من قبل وواكب بزوغها ظهور الولايات المتحدة الأمريكية في البحر المتوسط عند منتصف العقد الثامن من القرن الثامن عشر، ولكن هذا المشروع لم يلق حسن القبول من الدول البحرية الكبرى مثل إنجلترا و فرنسا. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر : ايروين، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب و الولايات المتحدة (1776-1816) - الجزائر ، ش.و.ن.ت، 1978، ص ص 75-83.

العاشر، ورئيسا للحكومة التي ستقرر حملة 1830 على الجزائر، ورأى عندئذ في مشروع "سديني سميت" مزايا كثيرة : بإشراك فرنسا في العمليات الحربية المقترحة كفيل بأن يصرف الفرنسيين عن "أحزانهم القومية"، ويشبع حاجتهم إلى النشاط العسكري و المجد. و في 19 سبتمبر 1814، قدم بولينياك مذكرة عن الحملة المقترحة ضد الدول المغرب، نوه فيها بأن هذا العمل الحربي المشترك سيقدم للدول متنفسا لأسلحتها وحمستها الحربية، وإلا مزقت الحرب أوروبا، كما أن توجيه الحرب للجزائر يقدم لفرنسا فرصة إقامة منشآت مهمة فيها.

ولكن مشروع "سديني سميت"، لم يقابل في دوائر المؤتمر الرسمية بالاهتمام، وبخاصة من جانب إنجلترا التي كانت تتجه إليها الأنظار لتتزعزع العمل الأوروبي المشترك، نظرا لتفوقها البحري في البحر المتوسط وخروجها منتصرة من الحروب النابولونية. ولكن إنجلترا لم تظهر اهتماما كبيرا، فهي بعيدة عن ميدان "القرصنة"، وسفنها لم تكن تقاسي ما تقاسيه سفن الدول الأخرى، بل أنها لم تكن لها مصلحة في القضاء على دول المغرب بوضعها الراهن، وهذا ما وضحه وزير خارجيتها إذ ذاك اللورد كاسلريه(Casellry) ، حيث وجد في دول شمال إفريقية فائدة أكثر لإنجلترا، وأنه حين ينشأ معها نزاع تستطيع إنجلترا تسويته بالمال أو بنيل الترضية، وهي تفضل المحافظة على هذه الدول حتى لا تقوم على الشاطئ الإفريقي، حكومات موالية لفرنسا وهذا ليس من صالح إنجلترا ولا من صالح تجارتها في البحر المتوسط².

²حول الوضع العام للعلاقات الخارجية للجزائر خلال هذه الفترة، انظر:

E. LE. MARCHAND : l'Europe et la conquête d'Alger, Paris, PERRIN et Cie

1913, PP 1.50. وكذلك جون وولف: الجزائر و أوروبا، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب،

1986 ، ص ص 414-455.

وهكذا، جاء هذا الموقف من جانب الحكومة الإنجليزية ملائما لموقف السياسة الفرنسية إزاء الجزائر في ذلك الوقت، وانتهى الأمر بأن اكتفى مؤتمر فيينا بوضع نص في قراراته النهائية في 9 جوان 1815، يقضي بالعمل على إلغاء القرصنة واسترقاق المسيحيين في دول شمال إفريقيا الثلاث ضمن سياسة عامة تهدف إلى إلغاء عادات القرصنة والرق في العالم³.

ولم يمض عام واحد على مؤتمر فيينا، حتى كانت إنجلترا قد نفذت فكرة التدخل باسم أوروبا المسيحية، ولكنها انفردت تقريبا بالتدخل المسلح ضد الجزائر، وإن اشتركت معها قطعا من الأسطول الهولندي لتثبت صفة الحملة الأوروبية. ولا شك أن هذا التدخل إنما جاء نتيجة للمركز الجديد الذي اكتسبته إنجلترا في منطقة البحر المتوسط إثر حروب نابليون، فقد آلت إليها جزر الأيونية شرقي المتوسط، وكذلك جزيرة مالطا، بإقرار من مؤتمر فيينا، إضافة إلى جبل طارق، حينئذ أصبحت إنجلترا تعد نفسها من دول المتوسط ومن ثم استغلت الفرصة لتعمل في هذا البحر باسم أوروبا، ولترضي في الوقت نفسه، أصحاب حركة مقاومة الرق الذين ازداد نشاطهم في إنجلترا، فعهدت إلى قائد قواتها في البحر المتوسط "اللورد أكسموث" (Exmouth) بالقيام بنشاط دبلوماسي وعسكري إذا لزم الأمر ذلك لنيل الترضية الكافية من الداي، ريثما يتهيأ الجو لعمل أوروبي مشترك⁴.

وصلت حملة أكسموث أمام ثغر الجزائر في مارس 1816⁵، وتقادري الداي عمر الدخول في حرب مع الإنجليز، فابرم معاهدة تعهد فيها بإطلاق سراح الأسرى من سكان الجزر الأيونية ونابلي وسردينية مقابل فدية مالية، علما أن يعاد إلى الجزائر الأسرى الجزائريون، ثم اتجه أكسموث إلى تونس و طرابلس و حقق فيها مثل ما حققه في الجزائر. و لكن الحكومة الإنجليزية لم تقتنع بهذه النتائج التي حققتها حملة أكسموث، فأعادته إلى الجزائر في 27 أوت 1816، ليطالب - هذه المرة - بإطلاق جميع الأسرى

جمال قنان : معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830) ، الجزائر، الشركة الوطنية للكتاب، 1987، ص ص 204-223.

³ E. LE. MARCHAND – OP, Cit, P22

⁴ أحمد عزت عبد الكريم، المسألة الجزائرية في السياسة الدولية، بيروت، دار النهضة العربية، 1980، ص 331.

⁵ تألفت حملة اللورد أكسموث من ست و ثلاثين سفينة حربية، انظر: جون وولف، المرجع السابق، ص 445.

الأوروبيين فوراً أو إعادة المبالغ التي دفعت فدية للأسرى، وأخذ تعهداً صريحاً من الداي بأن يضع حداً نهائياً للقرصنة وإسترقاق المسيحيين. ولم يستطع أكسموث أن يحقق مهمته إلا بعد أن ضرب ميناء الجزائر بالقنابل، ووقع اشتباك عنيف مع القوات الجزائرية، و لم يرضخ الداي إلا بعد أن ثار عليه رعاياه و اضطره لعقد اتفاق مع الأميرال الإنجليزي (31 أوت 1816) قبل فيه إلغاء استرقاق المسيحيين وإطلاق سراح جميع الأسرى على اختلاف جنسياتهم، و دفع تعويضات مالية لكل الهيأت التي تضررت من عملية افتداء الأسرى المسيحيين، و دفع تعويضا و اعتذارا رسميا لفنصل إنجلترا، الذي كانت السلطات الجزائرية قد اعتقلته بعد المعركة⁶.

وهكذا لم تذكر المعاهدة شيئاً عن القرصنة التي كانت الدول الأوروبية دائمة الشكوى منها. كما لم تستطع حملة أكسموث حل المسألة الجزائرية من وجهة النظر الأوروبية- حلاً حاسماً. ولهذا عاد كاسلريه" إلى مشروعه يعرضه على الدول والقاضي بتأليف قوة بحرية أوروبية مشتركة، يعهد إليها مراقبة البحار للقضاء على (القرصنة) وتجارة الرقيق، وتكون مدة الحلف سبع سنوات، حيث تسوى خلالها كل المشكلات التي تقلق بال أوروبا، وبخاصة منها ما يتعلق بأمن أوروبا وسلامة تجارتها في عرض البحر الأبيض المتوسط⁷.

وظل "ريشيليو" (RICHELIEU) وزير خارجية فرنسا، على موقفه معتقداً أن مصالح فرنسا الرئيسة يلحقها الأذى بتكوين حلف تتولى إنجلترا قيادته العليا، ولكنه، كان لا يستطيع الرفض صراحة، هذا إلى جانب حرصه على "ملاطفة" لندن لحاجته إلى تأييدها في تغيير بعض مواد معاهدات

⁶ E. LE.MARCHAND, OP Cit, PP 24-25

⁷ يحي بوعزيز- الموجز في تاريخ الجزائر ، الجزء الثاني، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1999، ص ص 355- 356.

1814 و 1815 ، لهذا ظل يطلب إلى سفيره في لندن أن يستخدم العبارات العامة، ويسعى لكسب الوقت⁸. وليبعد خطر السيطرة الإنجليزية في البحر المتوسط، فقد استعان بحيلة يحبط بها مفعول المقترحات الإنجليزية، فأعلن أن إيلات الشمال الإفريقي الثلاث ولايات عثمانية لا حق لها في أن تعلن الحرب على دول أخرى، أو تعقد السلم معها. وإذا كان لابد من القيام بعمل عسكري، فيجب أن يعهد به إلى الدول التي لها شواطئ على البحر المتوسط، و هو يعني بذلك فرنسا⁹.

أما روسيا، التي كانت ترى في إنجلترا منافسا خطيرا لنفوذها في الولايات العثمانية، فقد اقترحت بأن تقوم الدول الأوروبية المعنية كلها بالسعي لدى حكومة الباب العالي لإرغام الحكومة الجزائرية على وجوب احترام الأعلام الأوروبية، وإذا فشل هذا المسعى، فعلى هذه الدول أن تؤلف قوة بحرية مشتركة لردع الداى وزجره. وأما النمسا، فلم تكن تتحمس للمشروع الإنجليزي، ورأت أن معاهدة الصداقة القائمة بينها وبين الدولة العثمانية كفيلة بحماية سفنها من عدوان أهل المغرب¹⁰.

غير أن إسبانيا وجدت في هذا المشروع فرصة لانتقاد إنجلترا التي كانت تشجع الثائرين في مستعمراتها الأمريكية، فطالبت بأن يشمل موضوع القرصنة المستعمرات الأمريكية مثل إيلات الشمال الإفريقي تماما. و هو طلب عارضته الحكومة الإنجليزية، حيث كان الرأي العام في إنجلترا يعطف على الحركات التحررية في المستعمرات الإسبانية في أمريكا الجنوبية، و يميل إلى تأييدها توقعا لنشاط التجارة الإنجليزية مع تلك المستعمرات¹¹.

وهكذا، ظهر الخلاف واضحاً بين الدول الأوروبية في المسألة الجزائرية، هذا الخلاف الذي ما لبث أن تجسم عند معالجة مختلف مشكلات ما بعد مؤتمر فينا، وهي الفترة التي يطلق عليها عهد المؤتمرات، فقد خرجت كل منها منتصرة على نابليون، بينما احتفظت روسيا بأكبر قوة عسكرية في أوروبا،

⁸ جمال قنان، المرجع السابق، ص 210 .

⁹ المرجع نفسه، ص 211

¹⁰ يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 356 .

¹¹ E. LE. MARCHAND, OP, cit, P 34

احتفظت إنجلترا بالتفوق في البحار. أما فرنسا فقد عملت على استغلال الخلاف بين الدولتين الكبيرتين بما يحقق مصلحتها في أعقاب هزيمة¹² 1814.

توقفت مباحثات لندن ابتداء من 20 سبتمبر 1816¹³، ثم استأنفت في 4 ديسمبر 1817، و عاد الخلاف بين وجهات النظر، مما عطل سير المباحثات، وهو ما كان "ريشوليو" يريده، إذ كان يرسل التعليمات لمندوبه في المؤتمر بالمطالبة. ولما لم تصل مباحثات لندن إلى نتيجة أحيل الموضوع إلى المؤتمر الذي تقرر عقده في "أكس لاشايل" في سبتمبر 1818م، هو المؤتمر الأول في سلسلة المؤتمرات التي قررت الدول في عام 1815 عقدها من وقت لآخر لمعالجة المشكلات العالمية عن طريق التفاهم الدولي اتقاء لنشوب حرب أوروبية جديدة.

وفي هذا المؤتمر تصلبت الأطراف كلها في مواقفها السابقة، فكانت فرنسا التي مثلها "ريشوليو" الذي زود بتعليمات ملكه لويس الثامن عشر، توضح السياسة الفرنسية في ذلك الوقت، وخلاصتها أن فرنسا لا توافق على المشروع الذي سبق أن تقدمت به روسيا في لندن، لأن من شأنه الزج بفرنسا في حرب مع دول المغرب، وهي حرب ستكون باهظة التكاليف غير مؤكدة النتائج، ولأن فرنسا كانت تنظر إلى المسألة الجزائرية كجزء من السياسة الدولية العامة إذ ذاك، وكانت تسعى لعلاج أثار هزيمة 1814، و استغلال ما بين الدول المنتصرة من خلافات، ولا سيما بين إنجلترا وروسيا، للتقدم إلى الصف الأول بين

¹² قامت فرنسا من ناحية بمساعي لدى السلطنة العثمانية بهدف إقناعها بالعمل من أجل إعادة نفوذها على الدول المغربية، و إلزام هاته الدول بعدم القيام بأي عمل عدائي ضد أية دولة أوروبية . أنظر : جمال قنان، المرجع السابق، ص 229.

¹³ نوقشت حملة من المقترحات في مؤتمر لندن سنة 1816 ، و لكن فرنسا رفضت المشروع لأنها رأت فيه وسيلة لتأكيد التفوق الإنجليزي في المتوسط، و لأنها كانت تسعى لإعادة علاقاتها القديمة مع الجزائر و استرداد المؤسسات التي استولى عليها الإنجليز سنة 1807 . أنظر: محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، بيروت، مكتبة دار الشرق، 1969، ص 144 و كذلك محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1979، ص 233-339 .

الدول الأوروبية الكبرى، و هذا ما أشارت إليه التعليمات الفرنسية التي سعت لتحويل المحالفة الرباعية التي عقدتها فيما بينها إنجلترا و روسيا و النمسا و بروسيا في أواخر الحروب النابولونية إلى محالفة حماسية تدخلها فرنسا، الأمر الذي من شأنه أن يسهل تطبيق الوسائل المقترحة التي كان هدفها الأساسي هو المحافظة على السلام العالمي. و كانت الدولة الأكثر تشددا في رأيها هي إنجلترا، التي أعادت مشروعها السابق بشأن إنشاء رابطة بحرية أوروبية. أما روسيا، فقد عارضت المشروع البريطاني، و تمسكت بضرورة البدء بالقيام بمسعى مشترك لدى الباب العالي ليمنع (القرصنة) بوسائله الخاصة¹⁴.

واستقرّ الرأي أخيرا على أن يعهد إلى إنجلترا و فرنسا بالقيام بمسعى مشترك لدى القسطنطينية و الجزائر لوضع حد لما أسمته أوروبا "حرب القرصنة" في البحر المتوسط، و كذلك على تنفيذ المهمة الدولية التي أوكلت إليهما في دول المغرب. و عينت الحكومة الإنجليزية مندوبها في هذه المهمة الأميرال " سير توماس فريمانتل" (Sir Thomas Freemantle) قائدا للموقع البحري في المتوسط، واختارت الحكومة الفرنسية قائدا بحريا يحمل الرتبة نفسها، حتى يكون على قدم المساواة مع زميله الإنجليزي في الرتبة العسكرية، هو الأميرال جيريان دي سول (Jurien Desselles).

وبدأ المبعوثان مهمتهما في جو يسود الشك و الحذر، و لتقدير ذلك الجو، ينبغي أن نتصور حرص فرنسا على أخذ مكانها، خصوصا، و أن إنجلترا أكدت دوما على تفوقها في البحر المتوسط. اتفق القائدان على أن تتقدم إنجلترا و فرنسا بمهمة إنذار الداي بالنيابة عن أوروبا. وقد ظهرت أساطيل الدولتين أمام الجزائر في 5 سبتمبر 1819، و جاء في المذكرة التي أرسلت إلى الداي "حسين"، بأنه إذا بدأ المغاربة بالعدوان، فستكون أوروبا تحالفا قويا ضدهم، و تؤكد له المذكرة في الوقت نفسه على تخلي الداي عن حقه في تفتيش السفن الأجنبية و عدم مصادرتها بحجة استفتاء أوارقها. و لما كانت أوروبا

¹⁴ أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 336

تجنب المندوب الفرنسي في المؤتمر الدخول في التفاصيل و الدقائق حول الموضوع، بل اكتفى بالتستر وراء القرار الذي اتخذته حكومته بخصوص إلغاء الرق أنظر: جمال قنان، المرجع السابق، ص 210.

كلها مهمة بهذا الموضوع الخطر، فلن تكتفي الحملة هذه المرة بالوعود الشفوية، و إنما فرضت على الداي إصدار وثيقة رسمية لهذه التعهدات¹⁵.

وهكذا، و من الطبيعي أن يرفض الداي ذلك، لأن فيها إذلالا لكرامة الدولة الجزائرية، و انتقاصا لسيادتها، ولكنه رفض أيضا التعهد بعدم تتبع السفن الدول غير المرتبطة بمعاهدات، أما إلغاء نظام الرق دفعة واحدة، فلم يكن من الأفكار المقبولة في مجتمعات ذلك العصر¹⁶.

وحدث بعد هذا، أن ظهرت الشكوك بين فرنسا و إنجلترا حول مقررات إكس لاشايل، وانعدمت الثقة بينهما وبخاصة فرنسا التي كانت ما تزال تعاني من الشعور بعقدة النقص، وبذلك أخفقت البعثة الإنجليزية الفرنسية في الجزائر، ونظرا لما بين الدولتين من تنافس حول تلك المشكلة، فإن فرنسا التي اشتركت مع إنجلترا في تلك الحملة لم تكن تثق في نيات شريكها بأنها تسعى لإحراز مركز ممتاز في الجزائر، و لم يعرف الداي "حسين" كيف يستفيد من حالة التنافس بين تلك الدول، وأدى موقفه الصلب إلى خلق المسوغات أمام كل دولة لتستخدم الشدة مع الجزائر دون أن تجد معارضة جدية من الدول الأخرى. وحينئذ عادت كل دولة أوروبية تعالج شؤونها مباشرة مع سلطات الجزائر، وعلى رأسها الدولتان الأوروبيتان، فرنسا وإنجلترا، وعادت العلاقات الخارجية للجزائر إلى أوضاعها السابقة، وزاد الداي في تعنته،

¹⁵ A.Nettement – Histoire de la conquête d'Alger, Paris Jacques . Lecoffre, 1856, P 132 .

¹⁶ يحي بوعزيز، المرجع السابق ، ص 358
عمد دوفال، فحصل فرنسا في الجزائر منذ عام 1820 إلى العمل من أجل زعزعة القواعد و الأسس التي ارتكزت عليها العلاقات الجزائرية الفرنسية منذ وقت بعيد فبالإضافة إلى رفضه المطلق بالاعتراف باستقلال الجزائر و سيادتها، عمل على تأكيد أن فرنسا لها حقوق إقليمية في الجزائر كسبتها من المعاهدات التي أبرمتها مع الدولة العثمانية أنظر: جمال قنان، المرجع السابق، ص 217.

حتى إذا اشتد النزاع بينه وبين فرنسا في السنوات التالية لفشل السياسة الأوربية، أقدمت فرنسا في تسوية مشاكلها بطريقتها مع الجزائر، و لم تصطدم بمعارضة فعالة.

و من خلال تناولنا لهذا الموضوع، يتبين أن فرنسا استفادت من الظروف الدولية التي سادت في أوروبا منذ عام 1815، و انعقاد المؤتمرات الدولية، حيث وقع فيها مبدئيا على ضرورة القضاء على القوة الجزائرية في البحر المتوسط، و الذي سعت فرنسا إزاءها إلى التفكير في إعادة تكوين إمبراطوريتها الاستعمارية التي انهارت عام 1763، مستغلة النظام الأوروبي الجديد، الذي قرّر تحطيم الدولة الجزائرية. كانت فرنسا في هذه المرحلة تتقرب ضعف الجزائر التدريجي، في الوقت التي كانت تريد فيه استخدام الأهمية الإستراتيجية و الاقتصادية للجزائر في صالح كيانها القومي. و قد أتى ذلك في مرحلة انتقالية كانت تعيشها فرنسا، و هي مرحلة ما قبل الرأسمالية، التي اعتمدت على تراكم الأموال من خلال عمليات تجارية مربحة عبر العالم. و بهذا كانت فرنسا تسعى للتوسع ما وراء البحار لتتفتح أمامها إمكانيات جديدة، و هذا ما تأكد في مؤتمر فيينا بضرورة تأمين المصالح التجارية، و احتكار مناطقها. يقول عبد الله العروي:

" ابتداء من سنة 1815، كانت أوروبا التي أكسبتها مفاوضات فيينا الطويلة و عيا سياسيا مشتركا، مستعدة للتدخل باسم الألوهية الجديدة : الحرية، تحرير العبيد، إلغاء القرصنة، حرية التجارة وأمن التجار . إننا ندرك الاستخدام الناتج عن هذه الشعارات. و مهما كانت المنافسات التي أنشأت بعد ذلك العداوة بين الدول الأوروبية الكبرى، فقد وجد اتفاق أساسي على مبادئ العمل الأوروبي، و لا سيما بين فرنسا و إنجلترا، و قد قررت كل من الدولتين الأخيرتين مع مرور الزمن مستقبل شمال إفريقيا"¹⁷.

ولكن فرنسا في الواقع، بدأت تتحرك في اتجاه الجزائر منذ أن استردت أنفاسها على أثر الحروب التي أرهاقتها، و التي انتهت بغزوها على يد الحلفاء عام 1814. و إذا كانت هذه الدولة قد سجلت

¹⁷ A.Laroui- L'histoire du Maghreb, Essai de synthèse, T II Paris Maspero, 1975, P70.

موقعها بعد ذلك في البحر المتوسط، فإن ذلك كان نتيجة لطبيعة العلاقات الأوروبية المتباينة إذ ذاك، و للضغوط الأوروبية على الجزائر. و لقد تصدر الإنجليز في هذه الفترة عملية التحرش و الاستفزاز الذي سيؤدي إلى مجابهة مسلحة بين البلدين في عام 1824¹⁸.

وبفشل هذه الحملة الإنجليزية، فشلت كل من محاولات أوروبا لتدويل القضية الجزائرية، و خلا الجو لفرنسا لكي تسوي مشاكلها مع الجزائر بطرقها الخاصة التي كانت تفكر فيها و تسعى إلى تحقيقها منذ أمد طويل يقول فالي (Valet): " تعودت أوروبا تدريجيا على اعتبار الجزائر من ممتلكات فرنسا. فالقناصلة الأجانب، و حتى " سان جون"، الممثل الرسمي لإنجلترا، بالرغم من عدواته الواضحة لفرنسا، فقد قبلوا جميعهم بالأمر الواقع، فمنذ سنتين و الحصار البحري يؤثر في التجارة التي بدأت تسترد نشاطها شيئا فشيئا، و ما كان علينا إلا الاستيلاء على الجزائر دون خوف من نزوات ملك شرقي"¹⁹.

وبما أن فرنسا كانت تربطها بالجزائر علاقات تجارية، فستكون الأطماع الفرنسية في الجزائر أقوى من تلك التي ستظهرها الدول الأوروبية الأخرى، و بخاصة إنجلترا. و يكفينا تتبع الأطماع الفرنسية في الجزائر في تسلسلها التاريخي، لنبين لماذا صارت الجزائر أول منطقة تتجه إليها الأطماع الفرنسية، حين شرعت في إعادة تكوين إمبراطوريتها الاستعمارية الجديدة ؟

¹⁸ جاءت هذه الحملة البحرية بسبب اقتحام بعض الجزائريين مركز القنصلية الإنجليزية، بحثا عن بعض المتمردين، فاحتج القنصل الإنجليزي " ماكدونال" على هذا العمل و رحل إلى إنجلترا و حث حكومته على إرسال حملة تأديب ضد الجزائر، فأرسلت قوة بحرية بقيادة السير هاري نيل (Neal) و حملته مشروع معاهدة تتضمن حفظ حقوق الرعايا للإنجليز . و لم يقبل الداي هذه الشروط فأخذ " نيل" يقذف المدينة طوال يومي 11 و 12 جويلية 1824. أنظر : محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 146. وكذلك يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 358 .

¹⁹ R. Valet- L'Afrique du Nord devant le parlement au XIX eme siècle, Paris, Ed, champion , 1924, P16.

إذا كانت فرنسا قد بدأت عملياتها الحربية للاستيلاء على الجزائر في عام 1830، فإن أصول فكرة هذه العملية تعود إلى عهد حكم لويس التاسع (1226-1270)، الذي وضع مشروعا آنذاك للقضاء على "القرصنة المغربية" و احتلال مراكزها الأساسية (طرابلس، تونس و الجزائر) و كان ذلك بالنسبة للفرنسيين بداية في التفكير لاحتلال الجزائر²⁰.

و بعد ذلك، بدأت تظهر من وقت لآخر مشاريع رسمية و غير رسمية تهدف إلى احتلال الجزائر - أو على الأقل ساحلها- من قبل فرنسا، و في جميع هذه المشاريع - و دون استثناء منها مشروعا- يتحدث أصحابها عن ضم هذه البلاد إلى المسيحية، و قد مضت هذه المشاريع المختلفة نشق طريقها إلى دور المحفوظات في وزارات الخارجية أو الحرية أو غرفة التجارة بمرسيليا، حتى توجهت هذه المشاريع في النهاية بمشروع حملة عام 1830.

و لعل أقدم هذه المشاريع أيضا، المشروع الذي تفتق عنه خيال الملك شارل التاسع (1560-1574) و سعى لتنفيذه، و هو تحويل الجزائر إلى مملكة فرنسية يحكمها أخوه "دوق أنجو" (و هو هنري الثالث ملك فرنسا فيما بعد)، كوسيلة لإيجاد تاج ملكي لأخيه و إبعاده عن وراثته عرش فرنسا، و استبد الحال بالملك حتى ظن أنه يستطيع أن ينال الجزائر بموافقة السلطان العثماني، فكتب إلى سفيره في القسطنطينية (1572) مدعيا أن أعيان الجزائر تقدموا إليه ملتجئين حمايته من أطماع الإسبان في بلادهم، و مطمئنا السلطان أن أحاه حين يغدو ملكا على الجزائر - سيستمر في دفع الجزية المعتادة للسلطان، و كان رد السلطان سليم الثاني مزيجا من المهارة و السخرية²¹.

²⁰ حاول لويس التاسع احتلال المراكز الساحلية ليتخذها مواقع عسكرية و بحرية من أجل حماية دائمة للتجارة الفرنسية و حماية مصالح فرنسا الحيوية في البحر المتوسط، أنظر :

F- Charles – Roux- France et Afrique du Nord avant 1830- les persécuteurs de la conquête, paris. F. Paillart –1932 –PP 17-31.

²¹ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ص 345-346.

و في عهد لويس الرابع عشر (1643-1715)، زاد اهتمام فرنسا بالجزائر، فكانت نزعة هذا الملك ضد الإسلام و المسلمين معروفة. كان يوجه شؤون الدولة العليا بنفسه و هو القائل " الدولة أنا"، و كان واسع الطموح مصابا بداء العظمة و الغرور، يريد أن يكون الملك الشمس، ليس في فرنسا و حدها بل في أوروبا. وفي سبيل تحقيق مكاسب لفرنسا و أيجاد لشخصه زج بفرنسا في سلسلة من الحروب حققت له بعض المكاسب الأرضية، مقابل تضحيات بشرية و مالية باهظة²².

و يكفي أن نشير إلى سياسته في البحر المتوسط، فقد ندب نفسه للقضاء على القوى البحرية الإسلامية في هذا البحر، و ليحقق- في الوقت نفسه- سيطرة فرنسا فيه، و قد بحث عن أصلح مكان على ساحل المتوسط لإرساء السفن الفرنسية التي سيعهد إليها برقابة سفن المغاربة، و استعدت الحكومة الفرنسية استعدادا كبيرا للقيام بعمل حربي ضد الجزائر، فوقع الاختيار على جيغل لوقوعها قرب التقاء حدود الدولتين، تونس و الجزائر، و لأن جيغل كانت - كما تصور الأميرال " دي بوفور" تقع وسط أراضي خصبة يمكنها تموين الحامية الفرنسية دونما حاجة إلى فرنسا. و نجحت الحملة فيالانزول في جيغل في 22 جويلية 1664،و لكن لم يمض شهران حتى عاد الجزائريون فاستردوها، و بذلك فشلت أول محاولة قامت بها فرنسا لاحتلال موقع من أرض الجزائر²³.

و في الواقع، أن لويس الرابع عشر، قام بهذه الحملة بناء على تقرير أعده أحد الدبلوماسيين الفرنسيين الذين قضوا وقتا طويلا في البلدان الإسلامية المتوسطية، بين فيه أن الجزائر التي عدت أهم مدينة

²² محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 128.

²³ E.Cât – petite histoire de l'Algérie- Tunisie, Maroc , Algérie, Alger, A Jourdan 1889 PP 297-298.

و كذلك أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1492-1792)، الجزائر ش، و، ن، 1976 ص ص 425-422.

و أشهرها على السواحل الإفريقية، كانت تتوافر على ثروة زراعية كبيرة مثل القمح و الكروم و الزيتون و الفواكه و غيرها إلى جانب الثروة الحيوانية. و أكد التقرير بأن الاستيلاء على مدينة الجزائر سيكون عملية سهلة، و بسقوط المدينة سيسقط بلد الجزائر كله في يد الملك، لأنها لا توجد أية قوة أخرى في غير هذه المدينة، و إن فرنسا ستكسب من وراء ذلك شيء كثيرا. و انتهى التقرير بالتأكيد على كون هذه البلاد هي في متناول يد الملك " يستطيع الاستيلاء عليها في أي وقت و متى أراد ذلك"²⁴.

و يبدو أن لويس الرابع عشر لم يقتنع كلية بالمعلومات التي قدمت إليه و بخاصة فيما يتعلق بسهولة الاستيلاء على مدينة الجزائر، فاهزائم التي لحقت بالإسبان في محاولاتهم المختلفة ضد الجزائر، و لا سيما حملة شارلكان (1541) لم تمح من ذاكرة الأوروبيين تماما، و بذلك قرر أن يوجه ضربته إلى مكان آخر، و وقع اختياره على مدينة جيجل لأسباب اقتصادية وعسكرية. و هكذا، يظهر أن لويس الرابع عشر، كان يرغب في تصفية الحساب مع الجزائر، لا بتوجيه عملية محدودة و انتقامية فحسب، و إنما باحتلال دائم لأحد موانئها لاتخاذها قاعدة لعملياته المقبلة في منطقة المغرب و أيضا لعملياته البحرية من أجل الفوز بالسيطرة على المتوسط.

غير أن حكومة لويس الرابع عشر، عاودت العمل في البحر المتوسط بعد صلح نيمجن (Nemeguen) (1678)، و كان الوزير " كولبير" مهتما بتنشيط التجارة الخارجية لفرنسا، وما يقتضي ذلك من تأمين الطرق البحرية، فعزمت الحكومة الفرنسية على تجديد محاولتها ضد الجزائر، و تخيب هذه المرة محاولة إنزال جنود إلى البر بعد الدرس الذي تلقته في جيجل، و فضلت القيام بعمل مباشر ضد عاصمة الدولة الجزائرية، حتى يكون عملها أوقع و أشد تأثيرا على الداي و حكومته، على أن يكون هذا العمل بحريا صرفا.

و في عام 1682 وجه لويس الرابع عشر حملة بحرية كبيرة تضم مائة سفينة بقيادة " ديكين " (Duquesne). و أمر الملك قائد الأسطول بحرق الجزائر و تدميرها عن بكرة أبيها. و على الرغم من

²⁴ F. Charles- Roux :op cit, PP 155 –158.

الدمار الذي ألحقه القصف بالمدينة، فإنه لم يحقق سوى نتائج بسيطة. و أستأنف القصف من جديد عام 1683 دون إنذار مسبق، فاضطر الداي إلى إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين غير أن الطقس السيئ أجبر " ديكين " على الانسحاب دون أن يتغلب على المقاومة الجزائرية، و دون أن يستطيع تنفيذ أوامر الملك القاضية باستغلال حالة الذعر و الفوضى الناشئة عن القصف، لإنزال قوات تشعل النار في المدينة و تدمرها تدميرا تاما، و تنسف منشآت الميناء بصورة تجعلها غير صالحة للاستعمال، و كانت نتائج القصف تخريب مائة منزل و مقتل ألف جزائري²⁵.

و أعاد لويس الرابع عشر في عام 1688 الكرة، ووجه الأميرال " ديستري " (Destrees) على رأس حملة كبيرة، قذفت مدينة الجزائر بأكثر من عشرة آلاف قنبلة، و لكن الجزائريين استماتوا في الدفاع و قبضوا على القنصل و الجالية الفرنسية و قتلوهم جميعا و أرغموا الفرنسيين على الدخول في مفاوضات طويلة انتهت بتوقيع صلح طويل الأجل يوم 25 سبتمبر عام 1869²⁶.

و لم يمنع هذا السلام تجديد الأطماع الفرنسية، فأستمر التفكير في وضع مشاريع الانتقام من الجزائر، منها ما يشير إلى إرسال حملة بحرية لمعاودة ضربها، و منها ما يشير إلى إرسال حملة برية من الفرسان و المشاة ينزلون في مكان بري، ثم يتقدمون للاستيلاء على المدينة، و منها ما يشير إلى العمل ضد الجزائر لتغيير حكومة الداي- و في رأيهم هو مصدر كل فساد و كل عدوان على السفن و التجارة الفرنسية- و تقوم مكائها، حكومة منظمة تحافظ على علاقات تجارية نشطة مع فرنسا، و بذلك تبقى دولة الجزائر قائمة في ظل حكومة " متمدنة " و تتحقق لفرنسا أغراضها الاقتصادية.

²⁵ محمد خير فارس، المرجع السابق، ص ص 130-131.

²⁶ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 347

و من تلك المشاريع، مشروع "بيار تورال دي منبيلي" (Pierre-Torral De Montpellier) في عام 1729، وهو مشروع كما يصفه أحد الكتاب "بالمشروع الغريب"، و قد وضع لاحتلال الجزائر. و يذكر صاحب التقرير، الذي كان أسيرا في مكانس فيما بين 1694 و 1700، أن الجزائر تضم أراضي شاسعة، و تتمتع بسهول خصبة و صالحة لكل أنواع الزراعات، بما فيها التبغ. و تحتوي أيضا على الملح، و الشمع، و مناجم الحديد، و الرصاص، و النحاس، و القصدير، و بخاصة مناجم الذهب و الفضة، و أوصى في النهاية رعايا الملك من أصحاب رؤوس الأموال إلى الجيء إلى الجزائر لإنشاء المؤسسات الصناعية التي ستكون مربحة أكثر من التي هي موجودة في "الميسيسيبي" و في الوقت نفسه أحرز الملك بجني كنوزا هائلة من هذا المشروع، الذي في اعتقاده لا يكلف الخزينة أموالا طائلة و يمنح لفرنسا مكانة رفيعة ضمن الأمم الأخرى كالإسبان و الإنجليز²⁷.

و في عام 1791، تقدم "دي كيرسي" (Dekercy) قنصل فرنسا بالجزائر بمشروع آخر إلى حكومته، يدعوها فيه إلى إرسال حملة برية إلى الجزائر تنزل بشبه جزيرة سيدي فرج ثم تتقدم لاحتلال المدينة و القضاء على حكومة الداوي و إقامة حكومة جديدة تستجيب للمصالح الفرنسية و تنسجم معها، و اقترح أن تستولي هذه الحملة على كنوز الداوي لتكون كتعويض لنفقاتها و مصاريفها²⁸.

²⁷ A. Bertier- L'Algérie et son passée, Paris J. Picard, 1951 P183.

اقترح المهندس الفرنسي "ريكارد" خلال هذه الفترة، أن ترسل فرنسا حملة برية من الفرسان إلى احتلال الجزائر، و لكن الملك الفرنسي لويس الخامس عشر (1715 - 1774)، أثار استعمال الوسائل الإسلامية الدبلوماسية بدلا من وسائل العنف و القوة التي لم تفد أسلافه من قبل أنظر: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 348.

²⁸ F. Charles- Roux - op.cit, PP 351 à 356 .

و لكن ظروف فرنسا السياسية و الاجتماعية لم تسمح لها بتنفيذه، إذ في هذه السنة بالذات عمت المجاعة بفرنسا، و قلت موارد العيش، فشرعت الجزائر بتقديم مساعدات مادية و قروض مالية مهمة لفرنسا مكنتها من الخروج من الأزمة التي كانت تعاني منها²⁹

و ما لبثت أن توترت العلاقات بين البلدين، و ذلك بسبب احتلال فرنسا لمصر سنة 1798، حيث ردت الجزائر على التحدي بمثله، و قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا، و لم تكتف الجزائر، بذلك بل، أعلنت الحرب على فرنسا، و بقيت الجزائر على موقفها حتى خروج الفرنسيين من مصر سنة 1801، و هي السنة التي أبرمت فيها معاهدة بين الطرفين نصت أساسا على ضرورة إعادة العلاقات الدبلوماسية و التجارية بين فرنسا و الجزائر³⁰.

و لكن الصلح لم يكن سوى هدنة مؤقتة، فقد بقيت فرنسا على مواقفها واضحة إزاء احتلال الجزائر و هذا الموقف نلاحظه عند نابليون الذي فكر دوما في إقامة إمبراطورية واسعة تشمل مصر و الهند و بلاد فارس، و كان احتلال الجزائر و شمال إفريقية كاملا يدخل ضمن هذا المشروع. و طالما راود هذا المشروع الساسة السابقين منذ زمن بعيد، حيث كان يرمي إلى هدفين أساسيين: أولا، القضاء على النفوذ الإنجليزي في المنطقة، و ثانيا، الوصول إلى مصر و احتلالها نهائيا، ثم السيطرة على المشرق العربي و إلحاقه بالمستعمرات الفرنسية. وهكذا، فإن هذا المشروع، يدخل ضمن الأفكار العامة التي تكونت حول إعادة

²⁹ جمال قنان، المرجع السابق، ص 185.

³⁰ كان القنصل ديبوا تانفيل (Dubios- thainaville) الذي تعين عام 1798 خلفا للقنصل "مولتادو" (Moltado)، يتابع من مرسيليا تطورات الموقف الجزائري عن كثب عن طريق التجار اليهود من الجزائريين. و في التقارير التي بعث بها من مرسيليا إلى باريس أكد للمسؤولين فيها أهمية إعادة العلاقات بين فرنسا و الجزائر في هذه الظروف، و الفوائد الكبيرة التي ستجنيها فرنسا من وراء ذلك. أنظر: جمال قنان، المرجع السابق، ص 193.

تكوين الإمبراطورية الاستعمارية الأولى بعد أن تأكدت حكومة لويس الخامس عشر (1715-1774) من استحالة المحافظة على بقائها. يقول ديشان (Deschamps) :

" كانت الحروب الأوروبية في عهد لويس الخامس عشر مشؤومة بالنسبة للمستعمرات الفرنسية. فلقد استولى الإنجليز على كندا و الهند، كما أكدت معاهدة باريس لعام 1763 هذا التخلي الذي يبدو أنه لم يكن كارثة آنذاك. ففي الطرف الآخر، خسرتنا مراقبة البحار، و استولى الإنجليز على مستعمراتنا، وحقق زنج سان دومينغو حريتهم، و باع نابليون لوزيانا. و لم يبق لنا في عام 1815 أي شيء"³¹.

و هكذا، إذا القينا نظرة على ما تبقى من الإمبراطورية الفرنسية الأولى بعد سنة 1763، فنجد أنها لا تتعدى 40 ألف كلم²، تضم 400 ألف من السكان، بعد ما كانت تضم 30 مليون نسمة على مساحة قدرها 13 مليون كلم²⁽³²⁾. و هذا يتضح القلق الشديد الذي أصاب فرنسا، و لا سيما و هي تنحدر من تحسن العلاقات الجزائرية الإنجليزية في الميدان التجاري. و لم تنحصر حقيقة انحلال الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية في المنافسة التي قامت بين إنجلترا و فرنسا إزاء مناطق النفوذ، بل حقيقة هذا الانحلال عائدة إلى عدم تهيئ الجو الذي يحقق النظرية المركنتيلية التي عملت على تطبيقها الدول الأوروبية في مناطق النفوذ و الذي حاول "كولبير" الوزير الأول تطبيقها بالنسبة لفرنسا.

و قد أبدى "كولبير" اهتماما خاصا بالاستعمار فيما وراء البحار، و أسس شركة الهند الشرقية الفرنسية، و كانت أحلامه الاستعمارية واسعة، حتى أنه كان يأمل في أن تصبح مصر تابعة لفرنسا، و أن

³¹ H. Deschamps- la fin des empires coloniaux, Paris-presses universitaires de France , 1963 P34 .

³² لمزيد من التدقيق حول ما تبقى من الإمبراطورية الفرنسية الأولى أنظر:

CH.A. Julien. La politique coloniale de la France, sous la révolution, le premier empire et la restauration (1789-1830). Paris, Tournier et Constans, 1949, PP 90.94.

تقوم فرنسا بحفر قناة السويس، و تستولي على قواعد بحرية في طريق الهند و الشرق الأقصى. و تتلخص نظرية "كولبير" في أن المستعمرات هي مناطق تقوم فيها عملية تبادل تجاري غير متساوٍ بواسطة شركات تمنح كل حقوق التصرف و هذا ما قامت به شركة الهند الشرقية الفرنسية، غير أن شروط نجاح هذه العملية تتطلب سياسة تعمير بشري، و توافر الأموال التي كانت فرنسا في حاجة إليها في هذا الوقت، و كانت غير كافية لتحقيق أحلام لويس الرابع عشر التوسعية³³.

و استجابة لمشروع نابليون الأول، قام القنصل الفرنسي السابق في الجزائر جونيون سان أندري (Jean Bon Standre) في عام 1799 بإعداد مشروع احتلال الجزائر، وقد ادعى هذا القنصل أن في حالة اعتماد مشروعه كما أعدده، فإنه بإمكان فرنسا احتلال الجزائر في مدة زمنية لا تتعدى ثمانية أيام، و ذلك باستعمال المباغطة و ضرب العدو بسرعة و في الصميم³⁴.

و في الوقت الذي كان فيه الداوي مصطفى يلح على فرنسا أن تسلم له ديونه التي في ذمتها، كان الساسة الفرنسيون يخططون لاحتلال الجزائر، فقد أعد أحد الموظفين السامين في القنصلية الفرنسية

³³ يتفق الكتاب الفرنسيون على أن، السياسة الاستعمارية الفرنسية أخذت شكلها مع ريشيوليو و كولبير، إذ اعتبر كل منهما أن هذه السياسة ليست مسألة تجارية، بقدر ما هي وسيلة للسيطرة على البلدان و إقامة الاستيطان و تركيزه. أنظر:

G. Hardy – la politique coloniale et le partage de la terre au XIX e et XX siècle
Paris, Ed Albin Michel, 1937. PP 36 – 37.

G- Esquer- les commencements d'un empire, la prise d'Alger Alger- Ed L'Afrique
Latine, 1923 P31

³⁴ Berjaud – Boutin Agent secret de Napoleon 1^{er} et précurseur de l'Algérie
Française Frédéric Chambriand 1950- P88.

بالجزائر، و هو "تدينا" (Thedenat) مشروعاً لاحتلال الجزائر عام 1802، يتلخص في إنزال القوات الفرنسية في مدينة تنس الساحلية، ثم الزحف منها عبر سهول و مرتفعات مليانية على مدينة الجزائر³⁵. و على الرغم من أهمية هذه المشاريع، فإن تنفيذها قد أجل، و ذلك بسبب المشاكل الكبيرة التي كانت قائمة بين نابليون و الدول الأوروبية الأخرى، كما أن مشاكل الهند، و بعض مشاكل مستعمراته في المحيط الهادي، حالت دون التفكير الجدي في تنفيذ هذه المشاريع، و تأجيلها إلى بعد حين، لا يعني التخلي عنها نهائياً، و سنرى أنه عندما تتاح الفرصة لفرنسا تطبيق خططها الاستعمارية سوف لن تتردد لتحقيق ذلك مهما كلفها من أموال و أرواح بشرية.

و قد يكون توتر العلاقات بين فرنسا و الجزائر في الفترة الممتدة ما بين 1802-1805، سبباً مباشراً في إعداد الخطة تلو الأخرى لاحتلال الجزائر، إذ لم ترضخ الجزائر لتهديدات نابليون، بل جردته من كل الامتيازات الاقتصادية التي كان يتمتع بها في الجزائر و منحها الداوي أحمد إلى إنجلترا المنافس العنيد لفرنسا و هنا ثارت ثائرة الفرنسيين الذين اعتبروا ذلك إهانة لكرامتهم و خرقاً صارخاً للمعاهدات التي أبرموها مع حكام الجزائر³⁶.

وما إن قضى نابليون على المشكل الروسي، بإبرام معاهدة "تلسيت" (Tilssit)، عام 1807، حتى وجه أنظاره إلى الجزائر، بحيث طلب من وزير البحرية و المستعمرات الفرنسية السيد دوكري (Decres)، إعداد خطة عسكرية دقيقة لاحتلال الجزائر. و تنفيذاً لأوامر نابليون، جمع "دوكري" كل ما

³⁵ F- Charles Roux- Op cit, PP 411-423.

³⁶ أثر قرار الداوي بإغلاق المؤسسات الفرنسية تأثيراً بالغاً في الاقتصاد الفرنسي، و أحس القنا صلة بذلك فراحوا يبحثون عن حلول للأزمة التي حرمت عمالات الوسط من حبوب الجزائر، و عرضت آلاف الفرنسيين للبطالة و للمجاعات القاتلة. و زيادة على ذلك، أن هزيمة فرنسا أمام الإنجليز في الطرف الآخر يوم 21 أكتوبر 1805، قضى على أسطورة العظمة الفرنسية و أتاحت لإنجلترا أن تسيطر على البحر المتوسط، و يبدو أن ذلك كان من الأسباب التي جعلت الإيالة تفضل التعامل مع الإنجليز. لمزيد من التفاصيل أنظر:

CH A.Julien. " la question d'Alger devant les chambres sous la restauration, in R.A, 1922, PP 275-280.

يتعلق بالجزائر، و كل ما أعد بشأنها من خطط عسكرية، و لكن يبدو أنه لم يقتنع بها، فوضعها تحت تصرف أحد ضباطه العسكريين الأكفاء، و هو بوتان (Boutin)، و طلب منه تحقيقها ميدانيا و الخروج بخطة جديدة يمكن بواسطتها غزو الجزائر في أحسن الظروف و بأقل التكاليف.

أقام بوتان في مدينة الجزائر، في الفترة الممتدة من 24 ماي إلى 17 جويلية من عام 1808. و خلال هذه المدة، جاب البلاد من الشرق إلى الغرب، دارسا السواحل الجزائرية، و كل ما يتعلق بأحوال الجزائر عامة و طوبوغرافيتها بصفة خاصة. و قد وضع بوتان خرائط و رسومات دقيقة لكل تحصينات المدينة و مواقعها الحساسة موضحا كيفية ضربها و عدد القوات الفرنسية الضرورية لاحتلالها، كما أشار في مخططة إلى مكان إنزال القوات الفرنسية، و الفترة المناسبة للاحتلال و كيفية توزيعها و زحفها على مدينة الجزائر. كما أوصى في تقريره بضرورة القضاء على حكومة الداوي لمصلحة فرنسا، و دعا إلى ضرورة إنشاء " حكومة متحضرة" في هذه المنطقة من المتوسط المواجهة لفرنسا، و إرسال المزارعين الأوروبيين لتعميرها. لكنّ عندما عاد "بوتان" من بعثته سنة 1809، كان عهد صلح "تلاست" قد انتهى ، فكان مصير تقريره في محفوظات وزارة الحربية، و ظلت قيمة هذا التقرير في أنه كان أساس مشروع حملة سنة 1830³⁷.

و في آخر الأمر، لم يتمكن نابليون من تنفيذ مشاريعه الاستعمارية، و ذلك بسبب مدهامة الظروف له و انشغاله بالحروب الأوروبية. و خلال الفترة نفسها و لاعتبارات سياسية ، منها مدهامة الإنجليز لمدينة الجزائر و ضربها، تحسنت العلاقات الجزائرية الفرنسية، و بخاصة خلال سنتي 1817 و 1818، و لكن سرعان ما تدهورت هذه العلاقات بسبب قضية الديون، التي أثارها الداوي حسين طوال فترة حكمه، والتي انتهت كما هو معروف " بضربة المروحة" الشهيرة يوم 29 أفريل من عام 1827، التي

³⁷ L. Berjaud- op. cit PP 90 seq.

وجهها على ما يبدو الداي إلى القنصل الفرنسي دوفال (Duval) ، عندما طلب منه استفسارات على قضية الديون متهما إياه بالتماطل و عدم إعطاء القضية الاهتمامات التي تستحقها³⁸.

و لكن المشاريع ظلت تكثر يوما بعد يوم فقد تولى وزيرالحربية عندئذ، الكونت " كليرمون دي تونير (Clermont de Tonnerre) إعداد مشروع لاحتلال الجزائر. وفي الواقع أنه اعتمد على مشروع "بوتان" السابق ذكره. و قد رأى " تونير" أن حملة فرنسية ضد الجزائر ضرورية و ممكنة في الوقت نفسه و كان في تقريره النهائي قد أبدى بعض العواطف الدينية الواضحة، فقد وصف الحملة بأنها " حرب صليبية" هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره "الله ليثأر من أعداد الدين و الإسبانية". و أضاف " تونير" مخاطبا الملك " لعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الفرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين"³⁹.

و قد احتوى تقرير "تونير"، الذي كتبه إلى شارل العاشر، وصفا للحالة الاقتصادية التي كانت عليها الجزائر، و التي تغري أصحاب رأس المال و المصالح التجارية بالحملة. فقد قال إن الخزينة الجزائرية كانت تضم 150 مليون فرنك، و إن للجزائر موانئ عديدة و سهولا خصبة، و غابات صالحة لبناء السفن، و هناك مناجم الحديد و الرصاص و جبال من الملح و الموارد الكيماوية الأخرى. و في الوقت نفسه دغدغ أحلام العسكريين حين أوصى بإقامة مستعمرات سكرية فرنسية في الجزائر. و رأى أن الحملة ستكلف الخزانة الفرنسية حوالي 50 مليون فرنك، و تضم 33 ألف رجل، بالإضافة إلى فرقة من الخيالة و عدد من فرق المدفعية . وكان رأيه أيضا أن فرنسا لا تحل جزءا فقط

³⁸ يذكر نيتمون أن الحادث وقع يوم 30 أبريل 1827، لمزيد من التفاصيل حول هذه الحادثة أنظر :

A- Nettement –Op cit,P142.

³⁹ صلاح العقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1966، ص 86 .

من الجزائر، بل يجب احتلالها كلها احتلالا " طويل المدى". و قد ناقش مجلس الوزراء مشروع تونيز في جلسة 11 أكتوبر 1827، و لكن المجلس في النهاية قرّر عدم الأخذ به آنذاك⁴⁰.

و هناك مشروع آخر تقدم به أحد النواب في البرلمان. و قد نادى صاحبه بإقامة مستعمرات عسكرية شبيهة بما فعله الرومان، و بدعوة الأوروبيين أن يتوجهوا إلى الجزائر بدل الهجرة إلى أمريكا، و قال صاحب هذا المشروع إن احتلال الجزائر سيعوض فرنسا عما فقدته في منطقة الراين و يغنيها عن شراء بعض البضائع مثل التبغ و الحرير و السكر و الزيت و القطن. و لكن الحكومة الفرنسية لم تقتنع بالمشروع نظرا لأن حملة الانتخابات كانت على الأبواب و لأن نتائج الحملة المقترحة ستأتي بعد إجراء الانتخابات، و من ثم لن تؤثر في الرأي العام الفرنسي لصالح الحكومة⁴¹.

و من المشاريع المهمة أيضا، مشروع استعمال محمد علي، حاكم مصر، لاحتلال الجزائر لصالح فرنسا. و تصادف ذلك مع تولي "بولينياك" (Polignac) رئاسة الحكومة في فرنسا، و كان بولينياك يمثل الرجعيين، و قد رحب بفكرة " دروفيتي" (Drovetti) قنصل فرنسا في مصر، الذي كان ذا صلة متينة بالباشا محمد علي، و ناقشه فيها عدة مرات قبل أن يبعث في شأنها مذكرة إلى حكومته في أوائل شهر أوت عام 1829.⁴²

⁴⁰ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) الجزائر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982، ص 26-27.

⁴¹ المرجع نفسه، ص 27

⁴² CH-A. Julien – histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871) Paris, presse universitaire de France, 1964, PP 33.36 .

⁴³ G- Douin- Mohamed Ali et l'expédition d'Alger (1829-1830) le Caire 1930, Pp10-15.

و يميل الكتاب الفرنسيون إلى تصوير محمد علي، على أنه صاحب فكرة التدخل في الجزائر. و الظاهر من الوثائق المنشورة أن درفيتي هو الذي أعزى محمد علي بفكرة التدخل، و أن الباشا قد قبل الفكرة على أساس أنها وسيلة لإبعاد الاحتلال عن دولة إسلامية، و فرصة لتحقيق مطامحه الشخصية في الوقت نفسه. أما الحكومة الفرنسية فقد بنت مشروعها على أساس أن محمد علي عميل لها، و ليس باعتباره حليفاً كما يتبادر إلى الذهن⁴³.

و يقوم هذا المشروع على أساس تكفل محمد علي بتأديب الداوي بخروج حملة بحرية من مصر يؤديها الأسطول الفرنسي بحراً، و تقديم المساعدات المالية. و يترتب على هذه الخطة انتقال كل من ولايات طرابلس و تونس و الجزائر إلى محمد علي فقيم فيها حكومة "متحضرة" تحترم قوانين الملاحة، و يقوم محمد علي بضم هذه الولايات باسم السلطان و يدفع له جزيئها. و في مقابل مساعدات فرنسا بمنحها كل ما تطلب من امتيازات اقتصادية أو عسكرية في الجزائر⁴⁴.

و لكن سرعان ما تبين خطأ درفيتي في تقدير فوائد المشروع، فمن جهة لم يوافق الباب العالي على هذا المشروع، و من جهة أخرى تبين أن إنجلترا لم تكن أقل معاداة لمد نفوذ محمد علي في البحر المتوسط منها لتوسع فرنسا. و من هنا، كانت حسابات درفيتي خاطئة عندما اعتقد أن إنجلترا ستتنجب معارضة المشروع، و قد يتراجع عندما تصبح المسألة إسلامية بحتة.

و لما لم ينجح بولينياك في إقناع الباب العالي بأهداف المشروع، كما كان يتصوره، فقد أرسل إلى السفير الفرنسي في إسطنبول في 14 أكتوبر عام 1829 يطلب إليه تبليغ الباب العالي الاتفاق مع محمد علي، و يصدر تدخله على أنه عمل "بوليسي" داخل الدولة، و يهدد بأنه في حالة معارضة الأستانة

استخدم المؤلف في دراسته حول هذا الموضوع أرشيف قصر عابدين بالقاهرة و أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.

⁴⁴ G-Esquer- op-cit P 123 .

للمشروع، فإن فرنسا ستتولى بنفسها حل المشكلة بتدمير الجزائر أو في ضم أرضيها، و في تلك الحالة ستفقد الدولة العثمانية كل ما بقي لها من نفوذ في الجزائر. إلا أن السلطان العثماني رفض التهديدات الفرنسية، و اعتبر أن المشروع " يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، و أن كل ما يمكن القيام به، هو إرسال مبعوث إلى الجزائر لتسوية الخلاف بين فرنسا و الجزائر"⁴⁵.

و يبدو أن محمد علي كان أكثر تقديرا للملابسات السياسية، فقد فهم منذ البداية، استحالة موافقة الباب العالي على هذه الخطوة، و يتوقع معارضة إنجلترا. و الظاهر أنه تردد بين عاملين: هما الرغبة في الاتفاق مع فرنسا مباشرة لتحقيق طموحه في التوسع، و الخوف من إثارة الرأي العام الإسلامي ضده إذا ثبت أنه عميل لفرنسا. و الدليل على ذلك أنه فاتح القنصل الإنجليزي في القاهرة، و أخبره بوجود خلافات كبيرة بينه و بين فرنسا حول مشروع الجزائر و أضاف قوله:

"إنني لا أقبل المشاركة مع فرنسا في حرب ضد المسلمين، فأخسر ثقتهم بي، و أود لو وثقت إنجلترا بي، لأن من مصلحتها الاعتماد على مواجهة الخطر الروسي"⁴⁶.

⁴⁵ G. Dowin –op.cit. P 19

عمل الباب العالي على تحطيم المشروع الفرنسي، فأصر على صعوبة تنفيذه، و اقترح إرسال خليل أفندي كمندوب إلى الجزائر لحل الأزمة القائمة حلا وديا (ديسمبر 1829)، غير أنه أخفق في مسعاه. أنظر:

G- Esquer , op.cit, P 128.

⁴⁶ صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 94

رد محمد علي على رسالة الصدر الأعظم بخصوص مبادرته في الدخول في مفاوضات مع الفرنسيين ضد الجزائر، و بكونه رد على قنصل فرنسا الذي فاتحه في هذا الموضوع و حاول إقناعه بقوله: " أنتم مسيحيون، أما نحن و الجزائريون فمسلمون، و نحن ذوي دين و أمة و شريعة و دولة واحدة، لا يتلاءم مع ديننا و دولتنا" أنظر: ارجنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1847) ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1974، ص 35 .

و لم تتحول إنجلترا عن سياستها المعادية، و كانت خطتها إزاء مسألة الجزائر، هي السعي لدى فرنسا لقبول وساطة الباب العالي في هذا النزاع، و عبثا حاولت أن تفهم إنجلترا من مصلحتها تحويل أطماع محمد علي عن الولايات الشرقية إلى الغرب. و أخيرا أبلغت الحكومة الفرنسية في 23 جانفي عام 1830 بأنها ستعارض محمد علي بالقوة، و ذلك بعد تأكدها من معارضة الأستانة للمشروع، وأنها ستقوم بتدمير أسطوله البحري بمجرد مغادرته ميناء الإسكندرية⁴⁷.

كان هذا هو العامل الأول في القضاء على مشروع تدخل محمد علي، أما العامل الثاني فيتعلق بالمساومات التي دارت بين فرنسا و بين الباشا حول مبدأ المشروع و قيمة المساعدات الفرنسية، فقد عرضت فرنسا عشرة ملايين فرنك، و لكن محمد علي طالب بعشرين مليون فرنك، كما اختلفا على طبيعة المساعدة البحرية، هل تسلم قطع الأسطول لمحمد علي أم تشترك في الحملة على أنها جزء من الأسطول الفرنسي؟ و إذا كان محمد علي قد تخوف على تشويه سمعته في العالم الإسلامي بسبب مشاركة فرنسا، فلا شك أنه قد أصبح من المستحيل عليه قبول المشروع الثاني الذي قدمه بوليناك في جانفي 1830، و الذي يختلف اختلافا أساسيا عن المشروع الأول، من حيث أنه يؤدي إلى تقسيم الإيالات بين فرنسا ومحمد علي، فيستولي الباشا على طرابلس وتونس بينما تحتفظ فرنسا بالجزائر⁴⁸.

والحق أن بوليناك قد اصطدم منذ البداية بمعارضة وزير البحرية والذين عارضوا فكرة استخدام محمد علي، وكانا متحمسين لفكرة إرسال حملة فرنسية إلى الجزائر، حيث وضع وزير البحرية " بورمون" تقريرا مفصلا عن احتلال مدينة الجزائر، وفضل استخدام القوة لتحطيم " مكنم القرصنة" بشكل نهائي⁴⁹.

وفي حقيقة الأمر، فإن المشروع لم يلق التأييد الكامل من الدول الأوروبية، حيث أتت المعارضة الدولية له من معظم عواصم أوروبا، فاعتزضت النمسا لأن المشروع يتعارض مع مبدأ الحقوق الشرعية

⁴⁷ جمال قنان، " عنصر في الأزمة الجزائرية الفرنسية عام 1827، مجلة التاريخ، الجزائر عدد 17، 1984، ص 25".

⁴⁸ G- Esquer . op.cit. PP131-132 .

⁴⁹ IBID, P 132.

الدولة العثمانية، و لم توافق إنجلترا على المشروع حتى بعد تعديله. أما روسيا التي كانت تؤيد أطماع فرنسا في الولايات الإفريقية على أساس فكرة التقسيم، فقد تحولت عن فكرة التحالف في أوائل سنة 1830، وكان هذا عاملا أساسيا دفع بولينياك إلى التفكير من جديد في انفراد فرنسا باحتلال الجزائر، هذا بالإضافة إلى معارضة الصحف الفرنسية للمشروع المصري، و " اعتبرته سخيفا ومن الصعب تحقيقه"⁵⁰.

ولذلك لم تنتظر فرنسا رفض محمد علي، فمنذ نهاية ديسمبر عام 1829، بدأت تبحث عن احتمالات التدخل المباشر في الجزائر وفي 30 جانفي 1830 قرر مجلس الوزراء في باريس القيام بحملة عسكرية لاحتلال الجزائر، وكان أن ضرب الحصار أكثر من سنتين ونصف وفي 7 فيفري عام 1830 وافق الملك الفرنسي شارل العاشر على مشروع احتلال الجزائر عسكريا، و ما سيقترن عن ذلك من نتائج.

و هكذا، يتضح أن استعمار الجزائر كان مسألة مطروحة في أذهان القادة الفرنسيين منذ زمن بعيد، و توضحت أطماعهم أكثر بعدما فقدت فرنسا إمبراطوريتها الاستعمارية عقب هزيمة نابليون. و لذلك يجمع المؤرخون على أن احتلال فرنسا للجزائر كان يشكل بداية لظهور إمبراطورية توسعية جديدة.⁵¹

⁵⁰ IBID , PP 136 –144 .

⁵¹ G. Hardy , histoire de la colonisation Française, Paris, Larose, 1947, P 168.
R. Girardet, l'idée coloniale en France de 1871 à 1962, Paris, la table ronde, 1972, PP 22-23.